كتاب الشهر

# فلسفة الظواهر

## «مشروع نظرية عن الانفعالات»

تاليف جان بول سارتر
ترجمه ولخصه: اميل سَوَيري

يهم « الآداب » ان تقدم إلى قرائها المؤلفات التي أحدثت تحولاً في تاريخ الفكر البشري . وهي إذ تقدّم في هذا العدد تلخيص كتاب « مشروع نظرية عن الانفعالات » Esquisse d'une théorie des Emotions إنما تهدف بالدرجة الاولى الى اطلاع قرائها على الصراع الذي يحتدم اليوم بين فلسفة الظواهر ( الفينومينولوجيا ) وبين المناهج التي يعالج المفكرون بواسطتها العلوم الاجتماعية . وقد يصل الصراع بين الفينومينولوجيا وعلم النفس ، في السنين القادمة ، الى ذروته ، فينحاز علماء النفس او بعضهم ، الى معالجة علمهم هذا حسب فلسفة الظواهر ، بحيث يسعون الى استشفاف المعاني وراء الظواهر النفسية ، وعندها لا بد ان تتحول البسيكولوجيا الى فلسفة « ظواهرية »، فتبتعد بذلك عن مناهج العلوم الطبيعية ، لتبحث عما وراء الظاهرات النفسية من الأسباب والمعاني .

ولكي يتم إبراز صورة سارتر الحقيقية وتحديدها بشيء من الوضوح ، ومن أجل ان يكوّن القارىء فكرة بيّنة عن هذا المفكر العالمي ، لا بد من توضيح إطار مذهبه الفكري . ان له في ابحاثه الفلسفية لغته واسلوبه وجدليته التي تختلف كثيراً عن تبسيطه للمشكلات الانسانية التي يعالجها في رواياته ومسرحياته وقصصه . ولا يكفي ان نطلع على مؤلفاته الفنية لنحكم له أو عليه ، بل لا بد من الالمام بانتاجه الفلسفي لنركب العناصر اللازمة والمقاييس الضرورية في اسلوب حكمنا وطريقة نقدنا .

### تمهيد

قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة اقسام ، فعرض في القسم الأول نظريات علم النفس الكلاسيكية . ومن البديهي انه لا يستطيع ان يعرض جميع هذه النظريات ، وإنما يتعرض لبعضها ويتعرض لها من الناحية التي تهمه منها ، أي من وجهة نظر الانفعال ؛ ويناقش هذه النواحي في المواضع التي لم يتعرض لها غيره من قبل ، فهو لا يناقش في المشاع العام ، وانما يسير في بحثه على حافة المنطق . فنحن نراه يعرض لنظريات جيمس وجانه وفالون، ولومين ودانبو، حواربي كوهلر وبيير جيوم في الانفعال .

وفي القسم الثاني من الكتاب نراه يعرض نظرية « التحليل النفسي » حتى يصل الى الموضوع الرئيسي الذي هو النظرية الفينومينولوجية ، وهذا هو القسم الثالث من الكتاب .

وقد يظن المرء بان الصعوبة التي يصادفها في تلخيص الكتاب ناتجة عن شدة تكثيفه ، والحق ان الكاتب لم يكثّف جميع نظريات علم النفس الكلاسيكية ، ونظريات التحليل النفسي ، حتى يخلص الى الفينومينولوجيا ، وليته فعل ، إذن لأمكن الاكتفاء بترجمة إطار بحثه في سبيل اعطاء صورة واضحة عنه ، بل انه ناقش الأشياء التي تهمه من هذه النظريات ، وسار في ذلك على حافة المنطق كما قلت ، ولم يتعرض للمشاع العام .

وخيل الي وانا أفحص هذا الكتيب ، انه لا بد لفهمه من استيعاب جميع نظريات علم النفس والتحليل النفسي ، ليستطيع القارىء فهم الفينومينولوجيا قبل مناقشتها .

ومهما يكن من أمر فان عرض الكتاب على هذه الصورة التي عرضته فيها ، يعطي القارىء لا محالة ، صورة واضحه عنه وعن الصراع بين الفينومينولوجيا وعلم النفس .

واستطيع ان اقرر ،ان سارتر قد توجه في بحثه الصغير هذا الى علماء النفس واساتذة علم النفس ، لا الى طلاب مبتدئين في علم النفس .

## المقدمة

**علم النفس ، فلسفة الظواهر – علم النفس الفينومينولوجي**

يحاول علم النفس ان يكون علماً وضعياً ، أي أنه يريد الاعتماد على التجربة فحسب. ولن يكتفي علماء النفس بعداليوم بالسؤال والتفسير كما كانوا يفعلون في زمن التداعيين : إذ انهم يريدون التصرف بموضوع تجربتهم كما يتصرف عالم الفيزياء بموضوعه .

قد تكون هناك انواع عديدة من التجارب ، ولا بد ان نعرف ما إذا كانت تجارب الماهيات والقيم او التجارب الدينية ممكنة الحدوث وممكنة البحث. ان عالم النفس لا يستعمل سوى نوعين من التجارب : التجربة التي يمنحنا اياها الادراك المكاني الزماني للاجسام اولاً ، والمعرفة الحدسية لأنفسنا والتي نسميها التجربة الباطنية « Expérience réflexive » ثانياً . والنقاش الذي يدور حول طرق علم النفس، انما يدور في الغالب حول هذه المشكلة « هل هذان النوعان من التجارب متكاملان؟ أيجب ان نلحق واحداً بالآخر ، أم علينا ان نفصلها عن بعضها تماماً ؟ » ولكن علماء النفس متفقون على هذا المبدأ الرئيسي وهو وجوب استناد تحقيقاتهم الى الوقائع « les faits » . والواقعة حسب سارتر ، هي حادثة او قضية يلقاها المرء اثناء بحثه وعليه ان يعتبرها إثراءً غير متوقع وتجديداً لما عنده من الوقائع السابقة . وعليه ايضاً ألا ينتظر من هذه الوقائع أن تنتظم من نفسها في مجموعة تركيبية وان تسبغ معناها من تلقاء نفسها على ذاتها .

لا يمكن لعلم النفس ان يكون انتروبولوجيا ، اذا نحن عنينا بهذه الكلمة البحث عن ماهية الانسان وعن المنزلة البشرية، لأن علم النفس لا يقبل بتحديد غرضه بصورة قبلية . اذ ان مفهوم الانسان الذي يقبل به هو عامي تماماً : إنه يقول بأن ثمة مخلوقات تهب التجربة ميزات متشابهة . ويخبرنا علماء الاجتماع والفزيولوجيا بوجود بعض الصلات بين هذه المخلوقات . ولكن عالم النفس يأبى إطلاقاً ن يعتبر البشر المحيطين به مشابهين له ، لان مشابهة كهذه تبدو له خطرة ، اذ يمكن ان تبنى عليها انتروبولوجيا ، اي يمكن ان نعرف بواسطتها ماهية الانسان ومنزلته البشرية . وإذا كان من الممكن الوصول الى مفهوم للانسان عميق وشامل ، فان عالم النفس لا يعتبر هذا المفهوم إلا كفرضية لترتيب وتنظيم وتنسيق مجموعة الوقائع اللانهائية التي في حوزته . وإذا كان هناك عالم من علماء النفس يستعمل الآن مفهوماً ما للانسان ، فانما يستعمله استعمالاً شخصياً كخيط يربط الوقائع فيما بينها ، وأن اول واجب يفرضه هذا الاستعمال هو ان يعتبر مفهوماً معد لا ليس إلا .

بالرغم من انتحال علم النفس الصفة العلمية ، فانه لا يمكنه ان يقدم للانسانية سوى مجموعة من الوقائع الشاذة والتي لا يربط بين غالبيتها أيّ رباط . ولا تأتي هذه الفوضى صدفة ، وانما تأتي من مبادىء علم النفس الصميمة . فانتظار حدوث الواقعة هو انتظار الشيء المعزول ، هو تفضيل الحادث على الهام ، العارض على الضروري ، والفوضى على النظام . هو ان نرجيء اكتشاف الشيء الهام الذي هو ماهية الانسان ومنزلته البشرية الى المستقبل . وهذا ما يقول به علماء النفس انفسهم : « وفي المستقبل عندما تصبح لدينا مجموعة من الوقائع النفسية ، عندها يمكن ان نفكر في التفتيش عن ماهية الانسان . » ولكن اذا اعتقدنا ان باستطاعتهم تركيب انتروبولوجيا من مجموعة الوقائع فحسب ،فانهم يقعون في تناقض صريح مع انفسهم . هم يدّعون ان هذه هي الطريق السوية التي سلكتها علوم الطبيعة. ولكنهم لم يدركوا ان علوم الطبيعة لا تدّعي استكناه العالم ، وانما معرفة الشروط المحتملة لبعض الظواهر ! بيد ان الانسان كائن يشبه العالم تمام الشبه . ويعتقد « هيدجر » انه قد لا يمكن فصل مفاهيم العالم عن الحقيقة الانسانية. لذا فعلى علم النفس ان ينصاع صاغراً لهذه الحقيقة، وألا يحاول مطلقاً استكناه ماهية الانسان وان يتخلى نهائياً عن الوصول الى الحقيقة الانسانية ، حتى ولو جمع الوقائع التي يحسبها كافية لذلك .

ان عالم النفس يقبل بوجود الانفعال لأن التجربة تدله عليه من الخارج ، ويصنف هذا البحث بين فصول علم النفس ، كما

يصنف عالم الكيمياء فصل الكلسيوم بعد الهيدروجين . اما اذا حاولنا دراسة الشروط التي تحدث الانفعال ، اي دراسة بنية الحقيقة الانسانية التي تجعل الانفعالات ممكنة الوقوع ، وكيف ان هذه البنية تجعل الانفعال ممكن الوقوع ، فان محاولة كهذه تبدو لعالم النفس شيئاً لا طائل تحته بل شيئاً محالاً وعبثاً ( Absurde ) . اذ ما فائدة البحث عن امكانية حدوث الانفعال ما دامت التجربة تدلنا عليه ؟

وهكذا أسس هوسرل « Husserl » منذ ثلاثين عاماً تقريباً فلسفة الظواهر . وكان ذلك بمثابة ردّ فعل امام تقصير علم النفس . ولقد لاحظ هوسرل هذه الحقيقة : هناك انفصال تام بين الوقائع وبين الماهيات ، **والشخص الذي يبدأ تحقيقه العملي من الوقائع لا يمكنه بتاتاً الوصول الى الماهيات** . ولم يتخلّ هوسرل عن التجربة ، بل قال بوجوب ايجاد تجارب ماهيات وتجارب قيم . وقال بأن الماهيات وحدها هي التي تسمح بتصنيف الوقائع . ولذا لا يمكن لعلم النفس ان يكون بدءاً بل نتيجة ، لفلسفة الظواهر . واذا كان هدفنا تركيز علم النفس على قواعد ثابتة متينة ، وجب علينا ان نذهب الى ابعد من الوقائع النفسية ، ان نذهب الى ينابيع النفس الانسانية ، الى ماهية الشعور الانساني . ويعتقد هوسرل بأن الشعور لا يوجد الا بالمقدار الذي يشعر بأنه موجود . ولذا فانه لا يسأل الشعور عن الوقائع بل عن ماهية الشعور . اذن يمكن ان نوجد فينومينولوجيا الانفعال بدراستنا للانفعال كظاهرة متعالية محضة . وعلينا الا نتوجه بذلك الى الانفعالات الخاصة ، بل الى ماهية الانفعال المتعالية . **اذن فاننا نسير في طريق معاكسة لطريق علم النفس ، لأننا نبدأ من الانسان فنؤسس ماهية الانسان قبل التخبط بالبسيكولوجيا .**

والآن ما هي فلسفة الظواهر هذه؟ انها علم يدرس الظواهر لا الوقائع . والظاهرة تعني « الشيء الذي يفصح عن ذاته . » فواقع الشيء هو الظاهر الذي يفصح عن هذا الشيء . وهذا « الافصاح عن الذات » ليس شيئاً عادياً لا أهمية له ... لأن كيان الموجود ليس شيئاً « وراءه » شيء آخر « لا يظهر » . ان **الحقيقة الانسانية** تفهم وجود الانسان حسب « هيدجر » **في ان يعاني الانسان ذاته وكيانه ووجوده على نحو وجودي واضح ناصع مفهوم** ، ويقول « هوسرل » : **إن وجود الشعور هو في افصاحه عن ذاته العميقة الدفينة ، عندها يصبح مظهر الذات هو الشيء المطلق ، اي مطلق الذات ، لأنه يفصح عنها بكليتها** . إذن علينا ان نسأل مظهر الذات هذا وان نصفه ، **لأن الذات تعاني نفسها وتظهرها الى الوجود . فمن هذه الناحية** ، حسب « هيدجر » **يمكن ان نعرف الحقيقة الانسانية بكليتها من خلال كل موقف من مواقف الانسان . فمثلاً من خلال الانفعال يمكننا معرفة ماهية الانسان نفسها ، مادام الانفعال هو عين الحقيقة الانسانية التي تعاني ذاتها ، « وتتوجه مهتاجة » نحو العالم .**

جان بول سارتر

وهكذا فان عالم الظواهر ، يسأل الانفعال عن الشعور بكليته وعن ماهية الانسان ، يسأله لا عن طبيعته فحسب ، بل عما لديه من اشياء يفيدنا بواسطتها عن كائن حي ، له صفة مميزة من صفات لا تُعدّ ولا تحصى ، هذه الصفة هي انه قادر على الانفعال . وهو يوجه سؤاله ايضاً الى الشعور بكليته والى الحقيقة الانسانية عن الانفعال : ماذا يجب ان يكون كنه الشعور لكي يصبح الانفعال ممكناً وضرورياً؟ **ان عالم النفس لا يقيم اي وزن لمعنى الواقعة النفسية** واذا سألنا عالماً طبيعياً لماذا تجذب بعض الاجسام اجساماً اخرى حسب قانون نيوتن ، اجاب : لست ادري . واذا سألناه ماذا يعني هذا الانجذاب ، اجاب : انه لا يعني شيئاً ، انما هو موجود . وكذلك اذا سألنا عالم النفس عن الانفعال ، اجاب بكل فخر « **ان الانفعال موجود ، ولست ادري سبباً لوجوده ، اني ألاحظه فقط ، ولا أعرف له أي معنى .** » وعلى العكس من ذلك عالم الظواهر . **فان كل واقعة انسانية تعنى بالنسبة اليه شيئاً معيناً . فاذا ما نزعنا عنها هذا المعنى ، فانما ننزع عنها الصفة الانسانية .** فمهمة عالم الظواهر اذن هي دراسة معنى الانفعال . فماذا نعني بذلك ؟

ان دراسة المعنى هي ايجاد شيء آخر كتفسير له. فإن يكون للشيء معنى ما، هو ان يشار في تفسيره الى شيء آخر . وعندما نتوسع في دراسة المعنى ، نجد الشيء المعني ، **فالانفعال بالنسبة لعالم النفس ، لا يعني شيئاً . واذا كان لكل واقعة انسانية معنى من المعاني ، فان الانفعال الذي يدرسه عالم النفس على طريقته ، يصبح غير انساني** . اما عالم الظواهر ، فانه عند درسه للانفعال ، يفترض ان له منذ البدء ، معنى معيناً . ولا يستطيع الاقرار بوجوده ، إلا بمقدار وجود هذا المعنى ، **ما دام معناه هو وجوده** . فالانفعال يعني على طريقته الخاصة كلية الشعور . **واذا اردنا معرفة معناه من وجهة النظر الوجودية ، فانه يعني الحقيقة الانسانية** . ليس الانفعال حادثاً طارئاً ، لأن الحقيقة الانسانية ليست مجموعة وقائع . **وعلينا الا نعتبر الانفعال كنتيجة للحقيقة الانسانية ، بل نعتبر انه هو الحقيقة الانسانية بعينها ، تحقق ذاتها بواسطة الانفعال .** وليس هو حادثاً طارئاً في جملة الحوادث الطارئة التي تتصف بالفوضى ، انما هو شكل منظم للوجود الانساني .

لسنا ندعي في محاولتنا هذه الوصول إلى الحقيقة الانسانية عن طريق دراستنا للانفعال، بل كل ما نبغيه هو محاولتنا معرفة ما اذا كان بمقدور علم النفس ان يكتسب من فلسفة الظواهر طريقة ومعلومات . **ولكن هل هذا يعني ان علم النفس يجب ان ينتظر تكامل فلسفة الظواهر حتى يبدأ بحثه وتحقيقه ؟ كلا ، بل عليه ان يعتقد فقط ، ان دراسة ماهية الانسان ومنزلته البشرية هي ممكنة ، وانه اذا ما توصلنا الى ايجاد انتروبولوجيا فان على علم النفس وأنظمته كافة ان تستند الى هذا المنبع الاصيل الذي هو الانتروبولوجيا اعني العلم الذي يريد تحديد ماهية الانسان والمنزلة البشرية كما يعرفه الكاتب .**

ان فلسفة الظواهر تحاول تفسير ظواهر النفس لا الوقائع النفسية فحسب ، واذا فسرتها فبمقدار ما لها من معنى ، لا بمقدار انها وقائع نفسية فحسب . والذي يهمها هو الظاهرة النفسية بمقدار ما تفصح عن الحقيقة الانسانية بكاملها . ويقر الكاتب بانه يمكن ايجاد مثل هذا العلم . والذي ينقصه هو ان يصمد للمحك . ويقر بانه في هذه المقدمة لم يبرهن إلا على ان الحقيقة الانسانية تبدو لعالم النفس بمثابة مجموعة من المعطيات المثالية ، ولكنه يعترف ايضاً بانه لم يبرهن على انها ليست كذلك، بل انها تبدو هكذا لعالم النفس . بقي علينا ان نعرف ما إذا كانت الحقيقة الانسانية تحتمل تحقيقاً فينومينولوجيا ، وما اذا كان الانفعال مثلاً هو حقاً ظاهرة ذات معنى . وليس هنالك سوى وسيلة واحدة ، وهي ان يذهب عالم الظواهر الى الاشياء نفسها مباشرة . ويرجو الكاتب ان تعتبر الصفحات التي ترد بعد ذلك ، على انها تجربة لعلم النفس الفينومينولوجي. ويختم مقدمته بهذه العبارة « سنحاول ان نضع أنفسنا على بساط المعنى ونعالج الانفعال كظاهرة من الظواهر . »

## ١ — النظريات الكلاسيكية

يفترض الكاتب في البدء اننا نعرف النقد الذي وجه الى نظرية الانفعالات المحيطية . ويتساءل كيف يمكننا ان نفسر الانفعالات الحادة ، او الفرح المنفعل مثلاً ؟ ويتساءل ايضاً : كيف يمكننا قبول تفسير حالات نفسية معينة بردود فعل مبتذلة ؟ فردود الفعل الفيزيولوجية التي تنشأ عن الفرح لا تختلف عن اخواتها التي تنشأ عن الغضب إلا بالشدة والعنف . فكيف يمكن اذن لتبديلات كمية متتابعة في عالم الفيزيولوجيا ان تقابل سلسلة كيفية نوعية لحالات نفسية لا يمكن ان تتحول فيما بينها او تتبدل ؟ مع ان الغضب ليس فرحاً عنيفاً ، بل الغضب هو شيء آخر يختلف عن الفرح، فلو أدلينا بمثل ذلك الأحمق الذي ينتقل فجأة من الغضب الى الفرح ، لا يمكننا ان نؤكد انتفاء حالات نفسية تحدث بسرعة متناهية في الفترة التي ينتقل فيها من الغضب الى الفرح .

إن جميع الانتقادات التي وجهت إلى وليم جيمس لا تعترف بان الحالات النفسية هي فقط عبارة عن ظل وانعكاس للتظاهرات الفيزيولوجية ، بل ان النقاد ليجدون في التظاهرات الفيزيولوجية اشياء اكثر من ذلك ، إذ انه مهما تصورنا الاضطراب الجسدي عنيفاً في حالة الخوف ، لا يمكن ان نفهم لماذا يكون الشعور المقابل لهذا الاضطراب شعور خوف . فاذا ظهر الانفعال من الناحية الموضوعية كاضطراب فيزيولوجي فانه كوافعة شعورية ، ليس اضطراباً وفوضى خالصين ، وإنما له معنى معين . ويعتقد « جانه » بان الظواهر العضوية يمكن ان تقسم إلى صنفين : الظواهر النفسية أو انواع السلوك ، والظواهر الفيزيولوجية . ونظريته في الانفعال من شأنها ان تعيد الى الحياة النفسية مكانها اللائق . ويسترعي التبلبل او التشويش الذي يحدثه الانفعال انتباه كل من جيمس وجانه ، ويعتبر الأخير الانفعال كسلوك فشل . فعندما يكون الهدف صعب المنال ولا نستطيع ان

نجند في سبيله سلوكاً عالياً يلائمه ، فان الطاقة الروحية المحررة تنفق نفسها في طريق اخرى . عندها تستند إلى سلوك أدنى يقضي بان نجند توتراً نفسياً أخف . ويضرب الكاتب على ذلك مثال فتاة يعلمها والدها بانه يحس آلاماً في يده وانه مقبل على الشلل فتتدحرج على الارض فريسة انفعال عنيف يعود اليها عدة مرات في اليوم . وعند سؤال الطبيب لها تعترف بان فكرة خدمة والدها طيلة حياته بدت لها غير محتملة، فانتابها الانفعال. فالانفعال هنا يمثل سلوك الفشل . ويورد « جانه » في مؤلفاته أمثلة عديدة عن مرضى يعجزون عن الادلاء باعترافاتهم كاملة غير منقوصة فينفجرون بالنحيب والبكاء ... وهنا أيضاً يجد هؤلاء المرضى ان السلوك الواجب اتخاذه في سبيل الوصول إلى الهدف ، وهو الاعترافات الكاملة ، هو سلوك صعب المنال ، ولذا فهم يلجأون الى الدموع فتكون بمثابة سلوك فشل .

ويأخذ سارتر في نقض نظرية « جانه » فيقول : إذا اعتبرنا الشخص بمثابة منظومة سلوك ، واعتبرنا ان الانشقاق يحصل بصورة اوتوماتيكية، فان الفشل لا يمثل شيئاً وليس له وجود، بل هناك فقط عملية استعاضة السلوك بالتظاهرات العضوية.

ويعتبر سارتر ان « جانه » لم يستطع ردّ الحياة النفسية الى الانفعال ولم يفسر لنا سبب وجود عدة أنواع من سلوك الفشل. لماذا يكون رد الفعل عندي ضد الاعتداء علي عبارة عن خوف أو غضب ؟.. ويعود سارتر الى المثال الذي اعطاه جانه، وهو حالة المريضة التي تريد الادلاء باعترافاتها ، تريد ان تصف له بكل دقة وساوسها ، ولكنها لا تستطيع ذلك ، لأنها لا تستطيع القيام بهذا السلوك الاجتماعي الصعب، فتنفجر باكية.. ولكن هل تبكي المريضة لانها لم تستطع ان تقول شيئاً ؟ أم انها تبكي كي تدلي بشيء من الاعترافات ؟ بين هذين السؤالين أو التفسيرين نلاحظ فرقاً بسيطاً لأول وهلة، ففي الفرضيتين يوجد سلوك لا يمكن القيام به . وفي الفرضيتين ايضاً يعوض المريض عن هذا السلوك بتظاهرات متشتتة ؛ ولكن « جانه » يتنقل بينهما دون أن يبالي ، وهذا ما يجعل نظريته معقدة وملتبسة ..

غير ان هوة سحيقة تفصل بين هاتين الفرضيتين . فالفرضية الاولى ميكانيكية محضة ، وهي قريبة من نظرية جيمس . وأما الثانية فهي التي تعطينا شيئاً جديداً ، وهي وحدها تستحق ان ندعوها نظرية سيكولوجية عن الانفعالات ، وهي وحدها التي تجعل من الانفعال سلوكاً . وإذا أدخلنا القصدية هنا ، نلاحظ السلوك الانفعالي لم يعد مطلقاً عبارة عن بلبلة ، بل هو جهاز منتظم من الوسائل التي تهدف إلى غاية معينة . وهذا الجهاز قد اعد ليخفي ويعوض ويبعد سلوكاً لا يمكننا او لا نريد الاتيان به. ولكن بول جانه لا يفرق بين هاتين الفرضيتين لانه موزع بين القصدية العفوية وبين النظرية الميكانيكية .

وبعد ان يتابع نقده لنظرية « جانه » ، ينتقد علم النفس الشكلي حتى يصل الى الشعور نفسه . فيقول بانه عندما نسأل احد الاشخاص سؤالاً يعجز عنه ، نراه يغضب ويعمد إلى تمزيق ورقة الامتحان مثلاً . فالمرور من حالة البحث عن الجواب إلى حالة الغضب يفسر بانقطاع شكل نفسي وانشاء شكل نفسي آخر . واني لافهم انقطاع الشكل الاول ، ولكن كيف يمكنني ان أقبل بظهور الشكل الآخر ؟ عندها يتدخل الشعور الذي هو وحده قادر على قطع وانشاء اشكال دونما ملل ، لان الشعور وحده ينبيء عن غاية الانفعال .

## ٢ — نظرية التحليل النفسي

لا يمكننا فهم الانفعال إلا اذا بحثنا عن معناه. ومن الواضح ان التحليل النفسي هو أول من يدلل على معنى الحوادث النفسية، اي انه هو وحده الذي يؤكد بان كل حالة شعورية تساوي شيئاً آخر غير ذاتها . ففي مثال ذلك المهووس جنسياً الذي يسرق سرقة لا حذاقة فيها ولا مهارة ، لا يمكن ان يحكم على هذه السرقة بانها فقط ليست ماهرة ، لانها تحيلنا إلى شيء آخر غير السرقه ، إلى ذلك المركب الذي يحاول به المريض ان يعاقب نفسه . وليست المشكلة في التحليل النفسي انه يحاول ايجاد معنى وتفسير لكل حادثة نفسية ، إذ ان هذا المعنى متفق عليه منذ البدء ، ولكن المشكلة هي في مبدأ التفسيرات التحليلية .

ان تفسير علم النفس التحليلي يفهم الظاهرة الواعية كتحقيق رمزي لرغبة كبتتها المراقبة « Censure » . إلا ان الشعور لا يعتبر هذه الرغبة تحقيقاً رمزياً فحسب ... فلو كنا نعي هذا التحقيق ، أو لو كنا نشعر برغبتنا هذه في السرقة التي لا مهارة فيها مثلاً ، لظهر سوء نيتنا ..

اننا لا نرفض النتائج التي يصل اليها التحليل النفسي . واننا نقبل بهذه النتائج عندما يكون التحليل النفسي قد وصل اليها بواسطة الفهم . ولكننا نرفض نظرية التحليل القائلة بالسببية النفسية . ونؤكد من جهة ثانية ، انه بمقدار ما يجند المحلل

النفساني من الفهم في سبيل تفسير الشعور ، بقـــدر ما يجب الاعتراف بان كل ما يدور في الشعـور لا يمكن ان يفسر إلا بالشعور نفسه .

وهكذا نصل الى نقطة الانطلاق التي بدأنا منها وهي : ان كل نظرية عن الانفعال تؤكد معنى الحوادث الانفعالية ، عليها ان تبحث عن هذا المعنى لدى الشعور ذاته . وبعبارة اخرى ان الشعور هو الذي يصنع من نفسه شعوراً منفعلاً تلبية لحاجـــة معنى داخلي أو لحاجة تفسير داخل النفس . ويقول المحللون النفسانيون اننا في غالب الاحيان نناضل ضد توسع الظاهرات النفسية ، فنحاول التحكم في خوفنا وتهدئة غضبنا ، وكبت تحيبنا . وهكذا نجد اننا لا نشعر بقضية الانفعـال واننا فوق ذلك نرفض هذا الانفعال بكل قوانا ... ولكنـــه مع ذلك يجتاحنا بالرغم منا . لذا علينا ان نحاول وصف فينومينولوجيا الانفعال لكي نزيل هذه التناقضات .

### ٣ – مشروع نظرية فينومينولوجية

من الواضح ان الانسان الذي يخاف ، انما يخاف شيئاً من الأشياء . فلو اردنا فهم هذه الحالات القلقة الغامضة التي يشعر بهـا الانسان في الظلام او في الممرات الموحشة المقفرة وجب علينا الافتراض ان هذا الانسان انمـا يخاف من بعض ضروب الظلام ، والاشكال الموحشة المقفرة . إن الخوف بالنسبة لعلماء النفس يحصل من شيء ما . فيعود الانفعال في كل لحظة الى هذا الشيء ليتغذى منه . فالانسان الخائف والشيء المخيف هما متحدان في تركيب غير قابل للتحلل . ان العالم الذي يحيط بنا ، عـالم رغباتنا وحاجاتنا واعمالنا ، يبدو كأنه مليء بسبل ضيقة وطرق شاقة تقود الى هذا الهدف المحدد او ذاك . وكأن هـذه السبل والأهداف هي عبارة عن اشراك واحابيل . لذلك يعتقـــد الانسان ان هذا العالم هو صعب المراس . ومفهوم هذه الصعوبة ليس مفهوماً باطنياً يصدر من الذات ، بل انه موجود هنا في هذا العالم ، انه بمثابة صفة من صفات العالم التي تهب نفسها للادراك .

الآن نستطيع ان نفهم الانفعال . انه تبديل العالم من حالة الى اخرى . عندما تبدو السبل صعبة السلوك او عندما لا تظهر طرق ما على الاطلاق ، يستحيل علينا إذ ذاك البقاء في عالم ملح صعب المراس . وعندها نحاول ان نغير العالم ، اي ان نعيش هذا العالم بصورة تبدو فيها علاقات الأشياء مع قدرتها ، كأنها لا تدار بقوانين معينة ، ولكنها تدار بواسطة السحر . وبالرغم من اننا لا نشعر بذلك ، فاننا نعيش هذا العالم الذي وصفنـاه بكل جوارحنا . عندما يبدو امتلاك شيء من الأشياء صعباً او مستحيلاً ، فان الشعور يمتلكه او يحاول امتلاكه بشكل آخر ، اي انه يتبدل هو نفسه ليبدل بدوره هذا الشيء ، بعبارة اخرى ان الانفعال هو الجسد الذي يغير علاقاته مع العالم عندما يكون محركاً بواسطة الشعور ، كما يغير هذا العالم صفاته . مثـــال ذلك اني أمد يدي لالتقاط عنقود من العنب ، فـلا استطيع قطفه لأنه صعب المنال . فأهز كتفي وأسبل يدي وأتمتم بهـذه العبارة « هذا حصرم رأيته في حلب » وأبتعد . فجميع هذه الحركات وهذه الكلمات وهذا السلوك لا تفهم لذاتهـا ، بل كل ما هنالك انني أمثل هزلية عنقود العنب كيما أسبغ بواسطتهـا على العنب ، هذه الصفة ، صفة الحصرم ، استعيض بها عن السلوك الذي لم استطع القيام به . لقد بدا العنب في بادىء الأمر ناضجاً ، ولكن هذه الصفة الملحة تظهر بعد حين انها غير محتملة ، لأن القدرة لا يمكن لها ان تتحقق . وهذا التوتر غير المحتمل ، يصبح عذراً يسوغ لي ان أسبغ على العنب صفة الحصرم هذه التي تحل المسألة وتحسم النزاع وتلغي التوتر . ولكن هذه الصفة لا يمكنني ان أسبغها على العنب بصورة كيماوية ، بل أسبغهـــا بواسطة السحر . وتبدو هذه المهزلة كأنها صادقة بعض الصدق ؛ ولكن لنفرض حالة اكثر إلحاحاً ، وليتم هذا السلوك السحري بصورة اكثر جدية ، عندها نصل الى الانفعال .

لنفرض مثلاً حالة الخوف المنفعل : أرى وحشاً مفترساً يركض نحوي ، فترتجف للحـال ساقاي وتتباطأ دقات قلبي ، ويشحب وجهي فأسقط مغشياً علي . ان هذا السلوك هو سلوك الهرب . فالاغماء هنا هو عبارة عن ملجأ . فلأنني لم استطـــع تفادي الخطر بالطرق السوية فقد أنكرته أو نفيته ، لقد أردت اعدامه . فالخطر المحدق سبّب قصداً نافياً احدث بدوره سلوكا سحرياً . هذه هي حدود قدرتي السحرية على العالم : انني استطيع الغـاء العـالم كموضوع للشعور ، ولكنني لا استطيع ذلك إلا بالغائي للشعور ذاته . ولا يعتقد احـد بان السلوك الفزيولوجي للخوف المنفعل هو عبارة عن بلبلة محضة . بل هو تحقيق مفاجىء للشروط الجسدية التي تصاحب عادة الانتقال من اليقظـــة الى النوم .

والهرب في الخوف الفاعل هو ملجأ ايضـاً . إذ اننا نهرب لاننا لا نستطيع ان نعدم انفسنا في الاغماء . فالهرب هو عبارة

عن سلوك سحري ، به نستطيع انكار الشيء المخيف بجسدنا كله ، وذلك بان نقلب بنية المكان المحيط بنا ، ونخلق فجأة اتجاهاً ممكناً في الجهة الاخرى . هذه هي طريقة لنسيان الشيء المخيف ، وهكذا يفعل الملاكم المبتدىء عندما يهاجم الخصم وهو مغمض العينين : انه يريد الغاء قبضات هذا الخصم من الوجود.. انه يرفض ادراك هذه القبضات ، ومن هنا يزيل « رمزياً » ضرباته الحاسمة .

وهكذا فان المعنى الحقيقي للخوف يبدو لنا شعوراً يهدف الى إلغاء شيء في العالم الخارجي بواسطة سلوك سحري ، فيصل الى افناء ذاته كي يستطيع افناء هذا الشيء في العالم الخارجي .

ثم ينتقل الكاتب بعد ذلك الى وصف الحزن المنفعل ، فيبطل ميزاته المعروفة ، ويعرض تحليله الخاص فيقول : حين نفقد شرطاً من شروط عملنا ، يجبرنا العالم على العمل بدون هذا الشرط ، بينما تبقى قدرات العالم واحدة : الاعمال التي يجب ان نقوم بها ، والاشخاص الذين يجب ان نراهم ، واعمال الحياة اليومية .. كل هذه الاشياء بقيت كما هي بينما فقد شرط من شروط عملنا .

مثلا إذا علمت بافلاسي ، فلا اعود املك الوسائل ذاتها ، ينقصني مثلاً سيارة خاصة لأقوم بما كنت اقوم به ، فعليّ ان افكر بوسائل اخرى ، كأن اركب الاوتوبوس ، وهذا بالضبط ما لا ارضاه مطلقاً . فالحزن يهدف اذن الى الغاء الالزام للتفتيش عن وسائل اخرى . ولأننا لا نملك الوسائل ذاتها في سبيل تنفيذ الاعمال التي كنا نقوم بها ، فنحوّل انفسنا ونغيّر بنية العالم بشكل نأمل معه ألا يطلب منا هذا العالم شيئاً . فنرى العالم مليئاً بالكآبة ، لذا نؤثر قليلاً من الظلام أو شيئاً من الظل ، حتى نزيل كآبة العالم . ومن ثم ينتقل الكاتب الى الحزن الفاعل ، فيعود الى مثل المريضة التي جاءت الى بول جانه لتدلي باعترافاتها . فهي عندما تصل الى نقطة معينة في اعترافاتها تعجز عن تجاوزها فتنفجر باكية طمعاً في تبديل وظيفة السيد جانه من طبيب رسمي الى مواسٍ ..

ان سارتر يعتبر هذا العمل بمثابة رفض ارادي . وانفعال الحزن الفاعل في هذه الحالة هو عبارة عن هزلية سحرية للبرهان على الضعف . ثم ينتقل الى الفرح فيتساءل هل يمكن ان يدخل في نطاق هذا الوصف ؟ يبدو لأول وهلة انه ليس كذلك، لأن الفرح ليس بحاجة إلى الدفاع عن نفسه ضد خطر محدق. ولكن يجب التمييز بين فرح العاطفة وفرح الانفعال فعندما نبحث في هذا الفرح الأخير ، فرح الانفعال ، نرى انه يمتاز بصفة خاصة هي عدم الصبر . ان الفرح هو عبارة عن سلوك سحري يحاول تحقيق الشيء المرغوب فيه بكليته وبسرعة فائقة وذلك بصورة سحرية . فيبدو العالم كأنه سهل العبور ، والمرغوب فيه كأنه سهل المنال. فالرقص والغناء والطرب الذي يولده الفرح يوحي بان في استطاعته امتلاك الشيء المرغوب فيه بواسطة الرقص والغناء ، بالرغم من ان هذا الشيء يكون في حقيقته صعب المنال ، ولكنه يبدو سهلاً ويمتلك رمزياً دفعة واحدة. وهكذا يبدأ انسان بالرقص والغناء ، عندما تعلن فتاة عن حبها له ، فيتصور انه امتلكها ، بالرغم من انه في الحقيقة يترتب عليه ان يقوم باعمال شتى لاستحقاق حبها ولاغناء هذا الحب في قلبه ، كالقيام بخدمات صعبة والمبالغة في الاهتمام بها .. الخ . انه يتناسى كل هذه الاعمال ويتناسى الفتاة نفسها ويعد نفسه هذا الوعد : اني سأحقق هذه الاعمال في المستقبل . اما الآن فانه قد امتلك المرغوب فيه بصورة سحرية ، والرقص هنا يرمز الى


## المعهد العالي

**يفتح فرعاً صيفياً داخلياً في محطة بحمدون**

- يقبل الطلاب من لبنان ومختلف الاقطار العربية
- يتمشى على برنامج الجامعة الاميركية في بيروت
- يشرف عليه اساتذة اخصائيون
- يفتح ابوابه لاستقبال الطلاب في اوائل شهر تموز
- المقاعد والاسرّة محدودة جداً ، فتجدر مخابرة المعهد لحجز المقاعد برقياً او بالبريد الجوي على العنوان التالي:

**الاستاذ امين اللبان**

جمعية المقاصد — بيروت

الرسوم المدرسية

القسم الابتدائي ٦٥ جنيهاً استرلينياً او ما يعادلها

القسم الثانوي ٧٥ جنيهاً استرلينياً او ما يعادلها

تشمل هذه الرسوم : رسوم التعليم والاكل والمنامة والرحلات والمعالجة الطبية والغسيل والكي .

ترسل البيانات الى من يطلبها بالبريد الجوي مجاناً

لا يحجز مكان لاي طالب إلا عند إرساله نصف القسط المدرسي

هذا الامتلاك .

ولكن جميع هذه الملاحظات والأمثال قد أكدت لنا دور الانفعال الوظيفي ، واننا لا نعرف حتى الآن شيئاً عن طبيعة الانفعال . ويجب ان نلاحظ ان هذه الأمثلة التي عرضناها ليست وحيدة ، بل يوجد هناك انواع اخرى من الفرح والحزن . ولكننا نؤكد فقط انها تبين جميعها عالماً سحرياً باستخدامها جسدنا كحجاب او رقية . وعلينا ان نلاحظ ايضاً ان كل حالة تختلف عن الأخرى ، وان مجموعة السلوك التي يأتي بها الانسان مختلفة ايضاً ، فيجب اذن بحث كل حالة من حالات الحزن والفرح على حدة ، ولا نعتقد ان هناك اربعة اصناف من الانفعال ، بل توجد اصناف متعددة ، وان من يقوم بتصنيفها ليأتي بعمل جليل خصب .

ان الانفعال الحقيقي يصاحبه دوماً الاعتقاد ، وان الصفات التي تسبغها على الاشياء نعتقد بانها حقيقية . فماذا نعني بذلك ان لم نكن نعني ان الانفعال لا يكون حقيقياً إلا اذا عانيناه ؟ إننا لا يمكننا ان نفر منه ، انه يغني نفسه دون ان نستطيع توقيفه وان الظاهرات الفيزيولوجية في الانفعال لتمثل جدية الانفعال وترمز الى اعتقادنا بحقيقته . فالانسان يستطيع ان يقف عن الهرب بصورة إرادية ، ولكنه لا يستطيع إيقاف اضطرابه . والمفلس يستطيع ان يجلس امام طاولة العمل ويتناسى افلاسه ويأسه ، ولكن يديه لن تزالا باردتين . لذا ، وجب التفريق بين السلوك وبين الاضطراب المحض . يمكن للاضطراب ان يدوم اكثر من السلوك ، ولكن السلوك يمثل شكل الاضطراب ومعناه . ولولا الاضطراب لغدا السلوك معنى محضاً او مخططاً انفعالياً . ومن اجل الايمان بالسلوك السحري يجب ان يضطرب الانسان .

ولكي نفهم الانفعال تماماً ، يجب ان نعرف صفة الجسد المزدوجة ، هذا الجسد الذي هو في الوقت نفسه شيء من الأشياء في العالم ، والكائن الذي يحياه الشعور مباشرة . وهكذا نستطيع ان ندرك الشيء المهم في هذا الفصل ، وهو ان الانفعال ظاهرة من ظاهرات الاعتقاد . فالشعور لا يكتفي بان يسبغ على العالم الذي يحيط به معاني انفعالية ، بل يعيش هذا العالم الجديد الذي أنشأه منذ حين . انه ليعيشه مباشرة وينشئه بأعز الأشياء التي لديه دون ان يفقد نظراته الى العالم . فالشعور المنفعل يشبه كثيراً الشعور النائم . وهذان النوعان من الشعور يعيشان عالمها الجديد ويحولان جسدهما بطريقة تمكنهما من ان يعيشا ويمتلكا هذا العالم الجديد بواسطة هذا الجسد .

وهكذا نستطيع ان نقول بان اصل الانفعال هو انحطاط عفوي للشعور تجاه العالم . فالشيء الذي لا يستطيع الشعور احتماله بطريقة ما ، يحاول ان يمتلكه بطريقة اخرى ، فمثلاً قد يمتلكه بواسطة النوم او ان يتقرب من شعور النعاس او شعور الحلم او الهستيريا ، وجميع انواع الانفعالات لها هذه الصفة المشتركة : انها تحاول إيجاد عالم آخر قد يكون مخيفاً او كئيباً او فرحاً ، ولكن في هذا العالم تصبح العلاقة التي تربط بين الأشياء وبين الشعور علاقة سحرية ليس إلا . عندما ألاحظ ان شيئاً من الأشياء هو مخيف ، لا يعني ان هذه الصفة ستبقى ملازمة له الى الأبد . ولكن تأكيدي بان صفة هذا الشيء هي مخيفة ، وهي صفة جوهرية أسبغها على هذا الشيء ، ان تأكيدي هذا هو بمثابة انتقال الى اللانهاية ، تصبح عندها الصفة المخيفة داخل هذا الشيء . ليست الصفة المخيفة ، صفة وقتية للشيء ، بل هي تهدده ايضاً في المستقبل ، انها تمتد الى المستقبل بكامله ،

لتجعله مظلماً ، انها وحي عن معنى العالم . اننا نعيش منفعلين ، صفة تتجاوزنا من جميع الجهات ، فنألم منها ، وللحال ينزع الانفعال نفسه من نفسه ، فيتعالى ، ولا يغدو فترة مبتذلة في حياتنا اليومية بل يصبح حدساً عن المطلق .

ان الخوف يستحيل حدوثه في عالم معين منطقي معروف . اذ انه لا يظهر الا في عالم ، تكون فيه جميع موجوداته سحرية بطبيعتها ، وعلاقاتها فيما بينها تجري ايضاً بصورة سحرية .

وتعريف الانفعال ، حسب رأينا ، هو سقوط الشعور فجأة في عالم السحر . او اذا شئنا ، يحدث الانفعال عندما يزول عالم المنطق بصورة مفاجئة ، ليترك مكانه لعالم السحر ، ويجب ألا نعتقد بان الانفعال هو عبارة عن بلبلة وقتية الأعضاء وللفكر الذي يشوش الحياة النفسية من الخارج بل هو على العكس من ذلك ، عودة الشعور الى مواقفه السحرية ، هذه المواقف التي هي صفة من صفات الشعور الجوهرية ، بالاضافة الى ظهور العالم المناسب وعالم السحر .

ليس الانفعال حادثاً عارضاً ، بل هو نمط من أنماط وجود الشعور . انه طريقة يفهم الشعور بواسطتها وجوده في العالم .

**الخاتمة** : ويقول الكاتب في الخاتمة : نأمل ان نكون قد استطعنا البرهان على ان حادثاً نفسياً مثل الانفعال أعتبر حتى الآن كأنه بلبلة لا قانون له يحتوي على معنى خاص به ، ولا يمكن إدراك الانفعال بذاته ، الا إذا فهمنا معناه هذا . نريد الآن ان نحدد إطار بحث كهذا يمكن ان تبحث بواسطته حوادث نفسية اخرى مثل الفرح والحزن إلى آخره . .

لقد قلنا في مقدمتنا بان معنى الحادث النفسي يشير دائماً الى الحقيقة الانسانية بكاملها ، هذه الحقيقة هي التي تنفعل وتحزن وتفرح . . ودراسة الانفعالات توضح هذا المبدأ : يحيل الانفعال الباحث دائماً إلى الشيء الذي يعنيه . والذي يعنيه هو مجموعة علاقات الحقيقة الانسانية مع العالم . وانتقال الانسان الى الانفعال هو تعديل كلي لوجود هذا الانسان في العالم حسب قوانين السحر الخاصة ، وبعكس علم النفس ، نرى ان الظواهر تبدأ بحثها في الانفعال مثلاً من الحقيقة الانسانية المحددة والموضوعة بواسطة الحدس وبصورة قبلية . إذا كانت فلسفة الظواهر تستطيع البرهنة على ان الانفعال هو تحقيق جوهري للحقيقة الانسانية ما دامت انفعالية ، فانه يستحيل عليها ان تبرهن على ان الحقيقة الانسانية يجب ان تتظاهر بالضرورة في ناحية معينة من الانفعالات .

وما دامت انواع الانفعالات يمكن ان تحدد وتصنف ، فهذا يعني بان الوجود الانساني إنما هو مصطنع . ان هذا الاصطناع هو الذي سيمنع علم النفس وفلسفة الظواهر من ان يلتقيا .

الظهران — **اميل شويري**


**احدث المطبوعات الصادرة عن :**

## دار الثقافة ـ بيروت

مارون عبّود

# ميزان الجراب

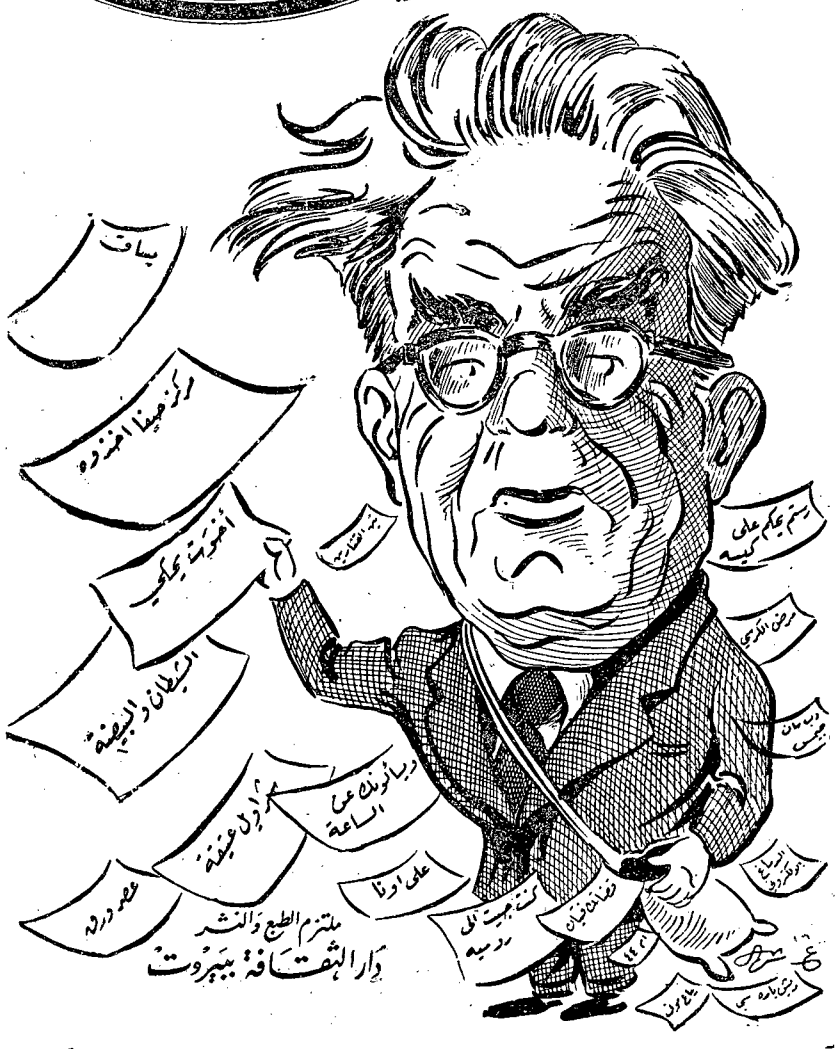


**يطلب مع سواه من الناشر : بناية الغراوي ص ب ٥٤٣ بيروت ومن عموم المكتبات**